إنْسَانيةُ الإسلامِ

قال ابن القيم رحمه الله : « مِن أعجبِ الأشياءِ أنْ تعرفَه ثمّ لا تحبّه ، وأنْ تسمعَ داعيَه ثم تتأخّر عن الإجابةِ ، وأنْ تعرفَ قدْرَ الربحِ في معاملتِه ثمّ تعامل غيرَه ، وأنْ تعرفَ قدرَ غضبِه ثم تتعرّض له ، وأنْ تذوقَ ألمَ الوحشةِ في معصيتِه ثم لا تطلب الأنسَ بطاعته ، وأنْ تتذوقَ عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه ، والحديث عنه ، ثم الاشتياق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجته ، وأنْ تذوقَ العذابَ عند تعلقِ القلبِ بغيرِه ، ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبالِ عليه ، والإنابةِ إليه ، وأعجبُ مِن هذا علمُك أنك لا بد لك منه ، وأنك أحوجُ شيء إليه ، وأنت عنه معرضٌ ، وفيما يبعدك عنه راغبٌ » .

إنّ **الإنسانيّةَ** إحدى خصائصِ الإسلامِ الكبرى ، إنها تشغلُ حيزاً كبيراً في مبادئه النظريةِ ، وتطبيقاتِه العمليةِ ، وقد رُبِطتْ بعقائدِه وشعائرِه ومنهجِه وآدابِه ربطاً محكماً ؛ فالإنسانيةُ في الإسلامِ ليست مجردَ أُمْنيةٍ شاعريةٍ تهفو إليها بعضُ النفوسِ ، وليست فكرةً مثاليةً تتخيَّلُها بعضُ الرؤوسِ ، وليست حِبراً على ورقٍ سطّرتْه بعضُ الأقلام ، إنها ركنٌ عقديٌّ ، وواقع تطبيقيٌّ ، وثمارٌ يانعة .

فمِن **ثمراتِ إنسانيةِ الإسلامِ** اليانعةِ :

مبدأُ **الإخاءِ الإنسانيِّ** ، إنه مبدأٌ قرَّره الإسلامُ بناءً على أنّ البشرَ جميعاً أبناءُ رجُلٍ واحد ، وامرأةٍ واحدةٍ ، ضمَّتهم هذه البنوّةُ الواحدةُ المشتركةُ ، والرحمُ الموصولةُ ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

ولعل كلمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ، وكلمةُ : ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ تُلزِمنا أن نفهم كلمة : ﴿ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ في هذه الآية على أنها الرحم الإنسانية العامة التي تسع البشر جميعاً .

والنبيُّ ﷺ يقرِّرُ هذا الإخاءَ ، ويؤكِّده كلَّ يومٍ أبْلغَ تأكيدٍ ؛ فقد روى الإمام أبو داودَ وأحمدُ في مسنده عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ : سَمِعْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي دُبُرِ صَلاَتِهِ : « اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ ، اللهمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، اللهمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ ، اللهمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، اجْعَلْنِي مُخْلِصاً لَكَ وَأَهْلِي فِي كُلِّ سَاعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ، اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ ، اللهُ أَكْبَرُ الأَكْبَرُ ، اللهمَّ نُورَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ »[1] .

فالنبيُّ ﷺ يعلنُ من خلالِ هذا الدعاءِ المتكرِّرِ الأخوّةَ بين عبادِ اللهِ جميعاً ، لا بينَ العربِ وحْدَهم ، ولا بين المسلمين وحدهم ، بل هي أخوَّةٌ بين بني البشرِ جميعاً ، على اختلافِ أجناسِهم ، وأعراقِهم ،

(١) أبو داود (١٥٠٨) ، أحمد (١٩٣١٢) .

وألوانِهم ، وطبقاتِهم ، ومِلَلِهم ، ونِحَلِهم ، والبشرُ جميعاً عند اللهِ جلّ جلالُه نموذجان ؛ رجلٌ عرفَ اللهَ ، وانضبطَ بمنهجِه ، وأحْسنَ إلى خَلْقِه ، فَسَلِمَ وسعِد في الدنيا والآخرةِ ، ورجلٌ غفَل عن اللهِ ، وتفلَّت من منهجِه ، وأساءَ إلى خَلْقِه ، فشقيَ في الدنيا والآخرةِ .

وهذا الإخاءُ الإنسانيُّ في الإسلامِ ليس للاستهلاكِ المحليِّ ، ولا للتضليلِ العالميِّ ، إنما هي حقيقةٌ دينيةٌ لا ريبَ فيها ، تنطلقُ من كلمتَي التوحيدِ والرسالةِ ؛ فشهادةُ أنْ لا إله إلا الله : إسقاط لكلِّ معبودٍ في الأرضِ ، ممن طَغَىٰ وبَغَىٰ ، وشهادةُ الرسالةِ وَصَفَتْ محمداً ﷺ أنه عبدُه ورسولُه ، يتَّبع ما يوحى إليه ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : ١٥] ، وقال تعالى :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة : ٤٤ـ٤٧] .

ويزداد هذا الإخاءُ توثُّقاً وتأكُّداً إذا أُضيف إليه عنصرُ الإيمانِ ، فتجتمعُ الأخوّةُ الدينيةُ إلى الأخوة الإنسانية ، فتزيدُها قوّةً إلى قوةٍ ، ولما كان بابُ الإيمانِ مفتوحاً لكلِّ الناسِ ، بلا قيدٍ ، ولا شرطٍ ، ولا تَحَفُّظٍ على جنسٍ أو لونٍ أو إقليمٍ أو طبقة ، فإنّ الإخاءَ الدينيَّ المتفرِّعَ عنِ الإيمانِ والعقيدةِ المشتركةِ لا يُضعِفُ الإخاءَ العامَّ ، بل يشدُّه ويقوِّيه ، فلا

تناقضَ بين الإخاءِ البشريِّ العامِّ ، والإخاءِ الدينِيِّ الذي تشيرُ إليه الآيةُ الكريمةُ :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

ويشيرُ إليه حديثٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لاَ يَظْلِمُهُ ، وَلاَ يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[١] .

بل إنّ النبيَّ ﷺ ربَطَ ربطاً محْكَماً بين الأخوَّة الإنسانية والإيمان ، بل جعلها مِن مقوماتِه ، فعَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[٢] ، وفي رواية : « وَحَتَّى يَكْرِهَ لِأَخِيهِ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ »[٣] ، وقد ذكر بعض شُرَّاح الحديث أنَّ كلمةَ (أخيه) في الحديثِ لم تُقَيَّدْ بصفةٍ تحدُّ إطلاقها ، والمُطلق في النصوص المحكمة على إطلاقه ، إذاً فالأخوّةُ التي قصَدَها المصطفى ﷺ هي الأخوَّةُ الإنسانيةُ .

لقد طبَّق الإسلامُ هذا الإخاءَ الرفيعَ ، وأقامَ على أساسه مجتمعاً ربانياً إنسانياً فريداً ، اضمحلَّتْ فيه فوارق الجنس ، واللون ، والقبيلة ،

---

(١) البخاري (٢٣١٠) ، ومسلم (٢٥٨٠) .
(٢) رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) .
(٣) البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٨٥) .

والطبقة ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ : « سَلْمانُ مِنّا أَهْلَ البَيْتِ »[١] .

ومن ثمراتِ إنسانيّةِ الإسلامِ اليانعةِ مبدأُ **المساواةِ الإنسانيّةِ** ، فقد قرّره الإسلامُ ، ونادى به ، وهو ينطلقُ من أنَّ الإسلامَ يُقَدِّرَ الإنسانَ ، ويكرِّمه من حيثُ هو إنسانٌ ، لا من حَيْثِيّةٍ أخرى ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

* * *

خطبة حجة الوداع

لقد خَطَبَ النبيُّ ﷺ في حجة الوداع خطبةً جامعةً مانعةً ، تضمّنَتْ مبادئَ إنسانيةً سيقتْ في كلماتٍ سهلةٍ سائغةٍ ، كيف لا ، وقد أُوتِيَ ﷺ جوامعَ الكَلِمِ ، فلقد استوعبتْ هذه الخطبةُ جملةً مِنَ الحقائقِ التي يحتاجُها العالَمُ الشاردُ المعذَّبُ ليَرْشُدَ وَيَسْعَدَ ، قال سبحانه :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

[طه : ١٢٣]

فمن المبادئِ التي انطوتْ عليها خطبةُ النبيِّ ﷺ في حجَّة الوداع :

١ ـ الإنسانيةُ متساويةُ القيمةِ في أي إهابٍ تُبرَز ، وعلى أية حالة تكون ، وفَوْق أيِّ مستوى تتربع ، فعَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ : حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ

---

(١) الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٩١) ، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢١٢) عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده .

خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلاَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلاَ لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى ، أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قَالُوا : يَوْمٌ حَرَامٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ قَالُوا : شَهْرٌ حَرَامٌ : قَالَ : ثُمَّ قَالَ : أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قَالُوا : بَلَدٌ حَرَامٌ ، قَالَ : فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ ، هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ : لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ »[1] .

٢ ـ النفس الإنسانية ما لم تكنْ مؤمنةً بربِّها ، مؤمنةً بوعدِه ووعيدِه ، مؤمنةً بأنّه يعلمُ سرَّها وجهرَها ، فربّما بَنَتْ مَجْدَها على أنقاضِ الآخرين ، لأنَّ النفسَ الإنسانيةَ تدور حولَ أَثَرَتِها ، ولا تُبالِي بشيءٍ في سبيلِ غايتها ، وبَنَتْ غناها على فَقرِهم ، وبَنَتْ عِزَّها على ذُلِّهم ، بل ربما بنتْ حياتَها على موتِهم ، لذلك قال الرسول الكريم في حجة الوداع : « . . . يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَدْرُونَ فِي أَيِّ شَهْرٍ أَنْتُمْ ؟ وَفِي أَيِّ يَوْمٍ أَنْتُمْ ؟ وَفِي أَيِّ بَلَدٍ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : فِي يَوْمٍ حَرَامٍ ، وَشَهْرٍ حَرَامٍ ، وَبَلَدٍ حَرَامٍ ، قَالَ : فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ ، ثُمَّ قَالَ : اسْمَعُوا مِنِّي تَعِيشُوا ، أَلاَ لاَ تَظْلِمُوا ، أَلاَ لاَ تَظْلِمُوا ، أَلاَ لاَ تَظْلِمُوا ، إِنَّهُ لاَ يَحِلُّ مَالُ

(١) رواه أحمد (٢٣٥٣٦) .

امْرِىءٍ إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ ، أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ وَمَالٍ وَمَأْثَرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . . »[١] .

٣ ـ والمالُ قِوَامُ الحياةِ ، وينبغي أنْ يكونَ مُتداوَلاً بينَ كلِّ الناسِ ، وأنّه إذا وَلَدَ المالُ المالَ مِن دون جُهدٍ حقيقيٍّ يُسهِمُ في عمارةِ الأرض ، وإغناءِ الحياةِ ، تجمَّعَ في أيدٍ قليلة وحُرمت منه الكثرةُ الكثيرةُ ، عندها تضطربُ الحياةُ ، ويظهرُ الحقدُ ، ويُلجأُ إلى العنف ، ولا يَلِدُ العنفُ إلا العنفَ ، والربا يُسْهِمُ بشكلٍ أو بآخرَ في هذه النتائج المأساويّةِ التي تعودُ على المجتمعِ البشريِّ بالويلاتِ ، لهذا قال المصطفى ﷺ في خطبة حجَّةِ الوداع : « أَلاَ وَإِنَّ كُلَّ رِباً كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَضَى أَنَّ أَوَّلَ رِباً يُوضَعُ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ ، لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ »[٢] .

٤ ـ النساءُ شقائقُ الرجال ، ولأنّ المرأةَ مساويةٌ للرجلِ تماماً ، من حيثُ إنّها مكلَّفةٌ كالرجلِ بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، ومساويةٌ له من حيث استحقاقُها الثوابَ والعقابَ ، ومساويةٌ له تماماً في التشريفِ والتكريم ، لهذا قال ﷺ في خطبة حجة الوداع : « أَلاَ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً ، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ[٣] عِنْدَكُمْ ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ

(١) رواه أحمد عَنْ أَبِي حُرَّةَ الرَّقَاشِيِّ عَنْ عَمِّهِ (٢٠٧١٤) .
(٢) رواه أحمد عَنْ أَبِي حُرَّةَ الرَّقَاشِيِّ عَنْ عَمِّهِ (٢٠٧١٤) .
(٣) وَمَعْنَى قَوْلِهِ : [عَوَانٌ عِنْدَكُمْ ، يَعْنِي أَسْرَى فِي أَيْدِيكُم] ، (سنن الترمذي) ، و[عوان ، أيْ أُسراء ، أو كالأسراء] ، (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣١٤) ، [وأصل التعنية طولُ الحبس] ، (الغريب لابن سلام ، (٢/ ١٨٦) .

شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ ، إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ، أَلاَ إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلاَ وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ »[1] .

والنبيُّ ﷺ قام لجنازةِ رجلٍ وصفَهُ القرآنُ بأنه مِن أشدِّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا ، فلما سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن ذلك قال : أليس إنساناً ؟ لذلك عدّ الإسلامُ الاعتداءَ على أيَّةِ نفسٍ اعتداءً على الإنسانية كلِّها ، كما عدّ إنقاذَ أيَّةِ نفسٍ إحياءً للناسِ جميعاً ، وهذا ما قرَّره القرآنُ الكريمُ بوضوحٍ جليٍّ ، قال الحكيم الخبير :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

ولم يكتفِ الإسلامُ بأنْ يقرِّرَ مبدأَ المساواة نظرياً ، بل أكدّه عملياً بجملةِ أحكامٍ وتعاليمَ ، نقلته من فكرة مجرَّدةٍ إلى واقع ملموس ؛ من ذلك العباداتُ الشعائريةُ التي فرضَها الإسلامُ ، وجعلَها الأركانَ العمليةَ التي يقوم عليها بناؤُه العظيمُ ؛ منَ الصلاة والزكاة والصيام والحج .

وفي مساجدِ الإسلامِ حيث تُقامُ صلاةُ الجمعةِ والجماعةِ تأخذ

(١) رواه الترمذي عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الأَحْوَصِ عَنْ أَبِيه (٣٠٨٧) .

المساواةُ صورتَها العمليةَ ، وتزول كلُّ الفوارقِ التي تميِّز بين الناس ، فمَن دخَلَ المسجدَ أوَّلاً أخذَ مكانَه في مقدّمة الصفوف ، وإنْ كان أقلَّ الناس مالاً ، وأضعفَهم جاهاً ، ومَن تأخَّر حضورُه تأخّر مكانُه ، مهما يكنْ مركزُه ، فكلُّ الناس سواسيةٌ أمامَ الله ؛ في قيامِهم ، وقعودِهم ، وركوعِهم ، وسجودِهم ، ربُّهم واحدٌ ، وكتابُهم واحدٌ ، وقبلتُهُم واحدةٌ ، وحركاتُهم واحدةٌ ، وإمامُهم واحدٌ .

وفي مناسكِ الحجِّ تتحقَّق المساواةُ بشكلٍ أشدَّ ظهوراً ، وتتجسّدُ تجسُّداً تراه العينُ ، فشعيرةُ الإحرامِ تفرِضُ على الحجَّاجِ والمعتمرين أنْ يتجرَّدوا من ملابسهم العادية ، ويلبسوا ثياباً بيضاءَ بسيطةً ، غيرَ مخيطةٍ ، ولا محيطة ، هي أشْبهُ ما تكون بأكفانِ الموتى ، يستوي فيها القادرُ والعاجزُ ، والغنيُّ والفقيرُ ، والمَلِكُ والمملوكُ ، ثم ينطلق الجميعُ مُلَبِّينَ بهتافٍ واحد : « لبيك اللهم لبيك » .

ومن المساواةِ العمليةِ التي قرّرَها الإسلامُ قولاً وطبَّقها فعلاً المساواةُ أمامَ قانونِ الإسلامِ وأحكامِ الشرعِ ، فالحرامُ في شريعةِ الإسلامِ يَتَّسِمُ بالشمولِ والاطِّرادِ ، فليس هناك شيءٌ حرامٌ على الأعجميِّ ، حلالٌ على العربيِّ ، وليس هناك شيءٌ محظورٌ على الملوَّنِ ، مباحٌ للأبيضِ ، وليس هناك جوازٌ أو ترخيصٌ ممنوحٌ لفئةٍ مِنَ الناس ، تقترفُ باسمه ما طوَّع لها الهوى ، بل ليس للمسلم خصوصيةٌ تجعلُ الحرامَ على غيرِه حلالاً له ، كلا إنَّ اللهَ ربُّ الجميعِ ، والشرع سيِّدُ الجميعِ ، فما أحلَّ اللهُ بشريعته فهو حلالٌ للناس كافّةً ، وما حرَّم فهو حرامٌ على الجميعِ كافّةً إلى يوم القيامة .

السرقةُ مثلاً حرامٌ ، سواءٌ أكان السارقُ من المسلمين أمْ لم يكن ، وسواءٌ أكان المسروقُ من المسلمين ، أم من غيرهم ، والجزاءُ لازمٌ للسارقِ ، أيًّا كان نسَبُه أو مركزُه .

وقد حاولَ بعضُ الصحابةِ أن يُشَفِّعوا أسامةَ بنَ زيدٍ حِبَّ رسولِ الله ﷺ وابنَ حبِّه في امرأة من قريش ، من بني مخزوم ، سرقت فاستحقتْ أن يُقام عليها حدُّ السرقة ، فكلَّمه أسامةُ فيها ، فغضب ﷺ غضبته التاريخية المعروفة ، وقال قولته التي خلَّدها التاريخ : « إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَايْمُ اللهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا »[1] .

وكان عمرُ رضي الله عنه إذا أرادَ إنفاذَ أمرٍ جَمَعَ أهلَه وخاصَّته ، وقال لهم : « إنِّي أمَرتُ الناسَ بكذا ، ونهيتُهم عن كذا ، والناسُ كالطَّيرِ ، إنْ رأَوْكم وقعتُم وَقعُوا ، وايمُ اللهِ لا أوتَيَنَّ بواحدٍ وقعَ في ما نهيتُ الناسَ عنه ، إلا ضاعفتُ له العقوبةَ لمكانِه منّي » ، فصارت القرابةُ مِن عمرَ مصيبةً .

* * *

(١) البخاري (٣٢٨٨) ، ومسلم (١٦٨٨) عن عائشة .

قصة جبلة بن الأيهم

وفي خلافتِه[١] رضي الله عنه وأرضاه ، جاءَه إلى المدينةِ جبلةُ بنُ الأيهم ، آخرُ ملوكِ الغساسنةِ يعلن إسلامَه ، فرَحَّب به عمرُ أشَدَّ الترحيب ، وفي أثناءِ طوافِ هذا الملِكِ حولَ الكعبة داسَ بدويٌّ على طَرَفَ إزارِه فَغَضِب الملِكُ ، والْتَفَتَ إلى هذا البدويِّ فضربَه ، وهَشَمَ أنفَه ، فما كان مِن هذا البدويُّ من فزارةَ إلا أن توجَّه إلى الخليفةِ الراشدِ عمرَ بنِ الخطابِ شاكياً ، فيستدعي عمرُ رضي اللهُ عنه الملِكَ الغسانيَّ إلى مجلسِه ، ويجري بينهما حوارٌ صِيغَ على النحو التالي :

قال عمر : « جاءني هذا الصباحَ مشهدٌ يبعث في النفسِ المرارةَ ، بدويٌّ من فزارةَ ، بدماءٍ تتظلَّمُ ، بجراحٍ تتكلَّمُ ، مُقْلَةٌ غارتْ ، وأنفٌ قد تهشَّمَ ،

وسألناهُ ، فألقَى فَادِحَ الوِزْر عليك ، بيديْك ،

أصحيحٌ ما ادَّعى هذا الفزاريُّ الجريحُ ؟

قال جَبَلَةُ : لستُ ممّن ينكرُ ، أو يكتمُ شيئاً ، أنا أدَّبتُ الفتَى ، أدركتُ حقِّي بيديَّ ،

قال عمرُ : أيُّ حقٍّ يا ابنَ الأيهمِ ، عند غيري يُقهَرُ المستضعفُ العافِي ، ويُظلَم ، عند غيري جبهةُ بالإثمِ والباطلِ تُلطَمُ ،

نزواتُ الجاهليةِ ، ورياحُ العُنجُهيةِ ، قد دفنّاها ،

---

(١) أعني خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وأقَمْنَا فوقَها صرحاً جديداً ، وتَسَاوَى الناسُ أحراراً لَدَيْنَا وعبيداً .

أَرْضِ الفتى ، لابدّ مِن إرضائِه ، مازالَ ظفرُك عالقاً بدمائِه ،

أو يُهشمَنّ الآنَ أنفُك ، وتنالُ ما فعلتْه كفُّك ،

قال جبلةُ : كيف ذاك يا أميرَ المؤمنين ، هو سوقة ، وأنا صاحبُ تاجٍ ، كيف ترضَى أن يخرَّ النجمُ أرضاً ،

كان وَهْماً ما جرى في خلدي ،

أنني عندك أقوى وأعزُّ ، أنا مرتدٌ إذا أكرهْتَني ، قال عمرُ رضي الله عنه :

عالَمٌ نَبْنِيهِ ، كلُّ صدعٍ فيه بِشَبَا[1] السيف يُدَاوَى ، وأعزُّ الناسِ بالعبدِ بالصعلوكِ تساوى » .

أما جبلةُ فلم يستوعب هذا المعنى الكبيرَ في الإسلام ، وفَرَّ من المدينةِ هارباً مرتداً ، ولم يبالِ عمرُ ولا الصحابةُ معه بهذه النتيجة ، لأنّ ارتدادَ رجُلٍ عن الإسلام أهونُ بكثيرٍ مِنَ التهاون في تطبيق مبدإٍ عظيمٍ مِنْ مبادئه ، وخسارةُ فردٍ لا تُقاسُ بخسارةِ مبدإٍ .

ومِن ثمراتِ إنسانيةِ الإسلامِ اليانعةِ دعوتُه إلى **السلام** بأوسعِ معاني هذه الكلمة ؛ بمعانيها الفردية والجماعية ، والمادية والروحية ، والدنيوية والأخروية ، قال تعالى في كتابه :

---

(١) [شباة ، الشباية ، طرَفُ السيف وحدُّه ، وجمعها شَبَا] ، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢ / ٤٤٢) .

﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[المائدة : ١٦]

إنّ الإنسانَ ـ أيَّ إنسان ـ في أيِّ زمان ومكان ، مفطورٌ على حبِّ وجوده ، وعلى حبِّ سلامة وجوده ، وعلى حبِّ استمرار وجوده ، وعلى حبِّ كمال وجوده ؛ وبكلمة موجزة ؛ مفطورٌ على حُبِّ سلامتِهِ وسعادتِه ، وهذان المطلبان الثابتان لدى أيِّ إنسانٍ لا يتحقَّقان إلا حينما يطبِّق منهجَ الذي خَلَقَهُ ، فهو الخبير بأسبابِ سلامته وسعادته ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١] ، وقال :

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر : ١٤] .

وأينَ نجدُ منهجَ الذي خَلَقَنَا ، وهو الخبيرُ بأسبابِ سلامتِنا وسعادتِنا ؟ إننا نجدُه في كتابه العزيز ، وسنَّةِ نبيه الكريم في كتابِ الله الذي لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه ولا مِن خَلْفه ، والذي يهدي للتي هيَ أَقْوَمُ ، وهو هدىً وبيانٌ وموعظةٌ وبرهانٌ ، ونورٌ وشفاءٌ ، وذِكْرٌ وبلاغٌ ، ووعدٌ ووعيدٌ ، وبشرى ونذيرٌ ، يهدي إلى الحقِّ ، وإلى الرشدِ ، وإلى صراط مستقيمٍ ، يُخرج الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ بإذنِ ربِّهم ، إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ ، ويحكمُ بينَ الناسِ فيما اختلفوا فيه ، فيه تبيانٌ لكلِّ شيء ، وهو شفاءٌ لما في الصدور ، فيه نبأُ ما قبْلكم ، وخبرُ ما بعدكم ، وحُكْمُ ما بينكم ؛ مَن ابتغى الهدَى في غيره أَضلَّه الله ، فهو حبلُ الله

المتينُ ، وهو الذِّكرُ الحكيمُ ، لا يشبعُ منه العلماءُ ، ولا يَخلقُ عن كثرةِ الردِّ ، ولا تنقضي عجائبُه ، مَن قال به صَدَقَ ، ومَن حَكَمَ به عَدَلَ ، ومَن عَمِلَ به أُجِرَ ، ومَن دَعَا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيمٍ ، قال تعالى :

﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة : ١٦] .

فمَن أرادَ رضوانَ الله ، والنعيمَ المقيمَ الذي أعدَّه اللهُ للإنسانِ المستقيمِ ، فعليه أنْ يهتديَ بهديِ القرآنِ الكريمِ ـ ولا هديَ سواهُ ـ ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٧٣] ، وقال :

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس : ٣٢] ، وأنْ يعتقِدَ بما جاءَ به . وأنْ يحلَّ حلالَه ، ويحرِّم حرامَه ، وقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

عندئذٍ يهديه اللهُ سبلَ السلامِ ؛ بأوسعِ معاني هذه الكلمة ، يهديه سبلَ السلام مع نفسه ، فلا كآبةَ ، ولا انقباضَ ، ولا شعورَ بالذنب ، ولا حسرةَ ، ولا ندمَ ، ولا سقوطَ .

ويهديهِ سبلَ السلام مع أهله ، فلا شقاءَ ولا شِقاقَ ، ولا عقوقَ ولا عصيانَ ، ولا تفكُّكَ ولا انهيارَ ، ولا مذمَّةَ ولا عدوانَ .

ويهديه سبلَ السلام مع مجتمعه ، فلا عداوةَ ولا بغضاءَ ، ولا إثمَ ولا عدوانَ ، ولا إحباطَ ولا إخفاقَ ، ولا مكرَ ولا كيدَ .

ويهديه سبلَ السلام مع ربِّه ، فلا حجابَ ولا نُحوصَ ، ولا جَفْوةَ ولا فُتورَ ، ولا غَضَبَ ولا سَخَطَ .

هذا على المستوى الفردِيِّ ؛ فماذا على المستوى الجماعي ؟ قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، قال علماءُ التفسير : « ما دامتْ سُنَّةُ النبيِّ ﷺ مطبَّقةً في مجتمعٍ ما ؛ مطبَّقةً في بيوتِهم ، وفي أعمالِهم ، وفي تجارتِهم ، وفي أفراحِهم ، وفي أتراحِهم ، وفي حلِّهم ، وفي ترحالِهم ، وفي علاقاتِهم ، فهم في مأمنٍ مِن عذابِ الله ، بكلِّ أنواعه ومستوياته » ، قال أحكمُ الحاكمين :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] ، وقال :

﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : ١٦ـ ١٧] ، وقال أيضاً :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٦٦] .

وماذا عن المستوى الدوليِّ ؟ الأُمَّةُ التي تطبِّقُ منهجَ الله ، يهديها اللهُ سبلَ السلام ، فيجعلُها مستخلَفةً ، ممكَّنةً ، آمنةً مطمئنّةً ، قال تعالى مذكِّراً بهذه الحقيقة :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا

﴿ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور : ٥٥] .

وإنّ الأمّةَ التي لا تطبّقُ منهجَ الله في حياتها تنطبقُ عليها هذه لآيةُ الكريمةُ انطباقاً كاملاً ، قال تعالى :

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم : ٥٩] .

* * *

زلازلُ الدنيا ، وزلزلةُ الساعةِ

أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ ، وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ ، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ »[1] .

ففي كلِّ حينٍ نسمعُ في الأخبارِ أنَّ زَلزالاً وقعَ في بلدٍ ، وزَلزالاً وقعَ في بلدٍ آخرَ ، وأنَّ هذه الأخبارَ تتقاربُ ، وتتعاظمُ درجاتُ هذه الزلازلِ ، وتودِي بحياةِ بضع عشراتٍ مِنَ الألوفِ ، وأنّ كثرتَها وشدَّتها مصداقُ حديثِ رسولِ الله ﷺ الذي لا ينطقُ عن الهوى ، إنْ هو إلا وحيٌ يوحَى ، إنَّ هذه الزلازل من وظائفها أنها تعطينا معنى الزلزلة الكبرى ، التي

(١) البخاري : (٩٨٩) .

أوعد الله بها ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١﴾ [الحج : ١] .

إنّ الأرضَ مِن أكثر الكواكبِ في المجموعةِ الشمسيةِ كثافةً ، فكثافةُ الأرضِ تزيدُ على كثافةِ الماءِ خمسةَ أضعافٍ ، ويفسِّرُ العلماءُ الزلزلة بأنّها حركةٌ في باطنِ الأرضِ ، حيثُ ينشأُ عنها ضغطٌ هائلٌ ، لا تحتمِلُه قشرةُ الأرضِ ، عندئذٍ تتصدَّعُ هذه القشرةُ ، وهذا التصدُّعُ في قشرةِ الأرضِ هو الزلزالُ الذي نستمعُ إلى أخبارهِ مِن حينٍ إلى آخرَ ، عِلْماً بأنَّ هذه القشرةَ يزيدُ سُمكُها على تسعينَ كيلو متراً ، وهي مِن صخورِ البازلت ، وهذه الصخورُ مِن أقْسَى أنواعِ الصخورِ ، ومع ذلك تتصدّعُ ، فهذا الضغطُ من باطنِ الأرض الذي يصدِّعُ قشرةً من البازلت يزيدُ سمكُها على تسعينَ كيلو متراً طرفٌ من معنى : إن اللهَ قويٌّ ، قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات : ٥٨] .

ويقولُ بعضُ علماءِ الزلازلِ : هناك زلزالٌ حَدَثَ في الصينِ في عامِ (١٥٥٦ م) ، أودَى بحياةِ ثمانمئةٍ وثلاثين ألفاً في ثوانٍ ، وفي عام (١٧٣٧ م) حدثَ زَلزالٌ في الهند ، أودَى بحياةِ مئة وثمانين ألفاً ، وفي عام (١٩٢٣ م) حدث زلزال في اليابان أودى بحياةِ مئة ألف ، وفي عام (١٩٧٦ م) حدث زلزالٌ في الصينِ أودَى بحياة مئة ألف ، وحدث زلزالٌ في إيطالية أودى بحياة خمسة وثلاثين ألفاً ، في ثوانٍ معدودات ،

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج : ١] .

سألوا عالماً كبيراً من علماءِ الزلازلِ : هل يمكنُ بما أُوتِينا من عِلمٍ

متقدِّم أنْ نتنبأَ بالزلزالِ قَبْلَ وقوعه ، ولو بثانية ؟ فقال : لا ، إلاّ أنّ حيواناتٍ كثيرةً في مقدّمتِها مَن يُضْرَب المثلُ بغبائِه ـ الحمار ـ يشعرُ بالزلزالِ قبل وقوعه بربعِ ساعةٍ ، ذلك لأنّ هذه الحيواناتِ ليست مكلفةً كالإنسانِ ، وليست مقصودةً بالزلزالِ ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

قال عزَّ وجلَّ :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾ [الزلزلة : ١] ، زلزلت أيْ : تحرَّكتْ تحرُّكاً شديداً ، واضطربتْ ، وزُلزِلتْ زلزالَها العظيمَ ، والكبيرَ ، والأخيرَ ، الذي ليس بعدَهُ زلزالٌ ، وذلك عند قيامِ الساعةِ ، وما هذه الزلازلُ في الأرض إلا نماذجُ مصغرةٌ ومحدودةٌ .

﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ [الزلزلة : ٢] ، أثقالها أي : الإنسان[١] ، المخلوقُ المكلَّفُ الذي خُلِقَ لجثةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، لأنه قَبِلَ حملَ الأمانةِ ، سخَّر اللهُ له ما في السماواتِه وما في الأرضِ جميعاً منه ، وجعلَه خليفتَه في الأرض ، فإنْ سَمَا عقلُه على شهوتِه كان فوقَ الملائكةِ ، وإنْ سَمَتْ شهوتُه على عقلِه كان دونَ الحيوانِ ، ﴿ وَقَالَ

(١) قال الطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٦٥) : [وأخرجت الأرضُ ما في بطنِها من الموتى أحياءً ، والميتُ في بطن الأرض ثقلٌ لها . . . وقال ابن عباس : يعني الموتى] . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٤٠) : [يعني أَلْقَتْ ما فيها مِنَ الموتى ، قاله غيرُ واحدٍ من السلف] .

﴿ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ [الزلزلة : ٣] ، تعجباً وخوفاً ، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة : ٤] ، ما عمِلَه الإنسانُ على وجهِ الأرضِ مِن خيرٍ أو شرٍّ ، ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة : ٥] ، أقْدَرَها على الكلام ، وأذِن لها فيه ، وأمَرَهَا به ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة : ٦] ، فُرادَى ، متفرِّقين ، فلا تجمعاتٍ ، ولا تكتلات ، ولا تناصرَ على باطل ، ولا هيمنة ، ولا غطرسة ، ولا تعالي ، قال عز وجل :

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس : ٦٥] .

قال تعالى :

﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الزلزلة : ٦ـ٨] ، أيْ مقدار ذَرَّةٍ ، وهي الجزء الذي لا يتجزأ ، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة : ٧ـ٨] ، يجد جزاءَه وعاقبتَه .

وردَ مِن حديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو الذي أخرجه أبو داودَ والنسائيُّ وأحمدُ والحاكمُ وصححه قَالَ : أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « أَقْرِئْنِي يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ : اقْرَأْ ثَلَاثاً مِنْ ذَوَاتِ الر[1] ، فَقَالَ : كَبُرَتْ سِنِّي ، وَاشْتَدَّ قَلْبِي ، وَغَلُظَ لِسَانِي ، قَالَ : فَاقْرَأْ ثَلَاثاً مِنْ ذَوَاتِ حاميم[2] ، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ ، فَقَالَ : اقْرَأْ ثَلَاثاً مِنْ الْمُسَبِّحَاتِ[3] ، فَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ ،

---

(١) أيْ مِن السوَر التي تبدأ بـ : الر .
(٢) أي السور التي تبدأ بـ : حم .
(٣) أي السور التي تبدأ ب : سبّح ، ويسبّح .

فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَقْرِئْنِي سُورَةً جَامِعَةً ، فَأَقْرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَداً ، ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ ، مَرَّتَيْنِ »[1] .

قال ابن القيم رحمه الله : « عشرةُ أشياء ضائعة لا يُنتَفَعُ بها ؛ علمٌ لا يُعمَلُ به ، وعملٌ لا إخلاصَ فيه ولا اقتداءَ ، ومالٌ لا يُنفَق منه ، فلا يَستمتِعُ به جامعُه في الدنيا ، ولا يقدِّمُه أمامَه إلى الآخرة ، وقلبٌ فارغٌ مِن محبّةِ الله ، والشوقِ إليه ، والأنسِ به ، وبدنٌ معطَّلٌ عن طاعته وخدمته ، ومحبةٌ لا تتقَيَّدُ برضاءِ المحبوب ، وامتثالِ أوامره ، ووقتٌ معطَّلٌ عن استدراكِ فارطٍ ، أو اغتنامِ بِرٍّ وقُرْبة ، وفكرٌ يجولُ فيما لا يَنفعُ ، وخدمةُ مَن لا تقرِّبُك خدمتُه إلى الله ، ولا تعودُ عليك بصلاحِ دنياكَ ، وخوفُك ورجاؤُك لمَن ناصيتُه بيدِ الله ، وهو أسيرٌ في قبضته ، ولا يملكُ لنفسِه ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

وأعظمُ هذه الإضاعاتِ إضاعتان ، وهما أصلُ كلِّ إضاعةٍ ؛ إضاعةُ القلبِ ، وإضاعةُ الوقتِ ، فإضاعةُ القلبِ مِن إيثارِ الدنيا على الآخرة ، وإضاعةُ الوقتِ مِن طولِ الأملِ ، فاجتمعَ الفسادُ كلُّه في اتباعِ الهوى ، وطولِ الأملِ ، والصلاحُ كلُّه في اتباعِ الهدَى ، والاستعدادِ للِّقاءِ ، واللهُ المستعانُ .

---

(١) أبو داود (١٣٩٩) ، والنسائي (٨٠٢٧) ، وأحمد (٦٥٧٥) ، والحاكم (٣٩٦٤) .

فالعجبُ ممَّن تعرِضُ له حاجةٌ فيصرفُ رغبتَه وهمَّته فيها إلى الله ليقضيَها له ، ولا يتصدَّى للسؤالِ لحياةِ قلْبِه مِن موتِ الجهلِ والإعراضِ ، وشفائِه مِن داءِ الشهواتِ والشبهاتِ ، ولكنْ إذا ماتَ القلبُ لم يشعرْ بمعصيتِه »[1] .

* * *

(١) الفوائد (ص١٢) بتصرف يسير .